لا أقول وداعاً بل إلى اللقاء

الأخ أبو حفص

بعد معركة حزيران ٦٧م ، هاجر أحدهم إلى الأردن ، ليلبّي واجب الجهاد ، وانضمّ أخواه إلى بعــض الفــرق الشعبية لنفس الهدف .. وحامت حولهما الشبهات ، وبدأت سلطات اليهود تراقب كلّ صغيرة وكبيرة في حركاتهما وسكناتهما خاصّة وأنّ معظم أصدقائهما قد أودعوا بطون السجون .. ولاحظ الأخوان الأمر وقــرّرا مواصــلة أداء الواجب من خارج الأرض المحتلة ..

ملئت سيارة الرحيل بأفراد العائلة وتوجّهت شرقاً إلى الأردن .. وعلى مشارف القدس قبيل بلدة العيزيرية بمسافة ، تلألأت قبة الصخرة بألوانها الزاهية عروساً تودّع الخطّاب باكية شامخة رافضة ، وتتجلّى في عين الأخ الأصغر تجلياً لم يكن له به عهد من قبل .. ويثور في داخله : (إلى أين أذهب ؟ .. إلى من أنا تاركك ؟ .. هذا أمر مــستحيل ! لا بدّ أن تقف السيارة حالاً ، لا بدّ أن أعود إليك الآن) ..

ويقف أمام مقعده ، ويلتفت إلى السائق ليطلب منه الوقوف ، فينظر إليه أخوه ويتذكّر سبب الرحيل .. فيتردّد ثمّ يستدير ثانية إلى القبة الذهبية متخيّلاً فلسطين على هلالها الضارب في كبد السماء ، مخاطباً إياها : أنا لا أقول وداعاً بل إلى اللقاء !

وما إن استقرّت العائلة في مكان هجرتها حتى وجد صاحبنا مكانه بين صفوف المجاهدين .. وكان يزداد عاماً بعد عام صلابة ومقدرة قتالية ، وها قد مرّت عليه سنون متلاحقة حين انطلق مع بعض المجاهدين والرفاق في أداء مهمّة في شمال فلسطين ، وفي لهيب معركة حامية الوطيس يتسلّل وآخران إلى مستعمرة للعدو .. وبعــد أداء مهمتــهم أرادوا الانسحاب ، إلاّ أنّهم فوجئوا بالمنافذ قد طوّقت إلاّ جهة واحدة تولّى حراستها حقل ألغام ، ولم يكن لديهم خيــار غير اجتيازه

وما إن اجتاز صاحبنا الحقل بسلام –وكان ثاني من اجتازه– حتى سمع صوت انفجار هائل ، ونظر إلى الخلــف فرأى صديقهما الثالث ملقى أرضا .. ويتوجّه إليه ويتفقّد حاله ، ويحاول إخراجه من الحقل .. (الأسلحة تعــيقني في عملية الإنقاذ) .. ويضعها جانباً ، ويخرج صديقه من حقل الألغام ، ثمّ يذهب لإخراج الأسلحة .. وأثنــاء العــودة يشعر بنفسه قد طار في الهواء نتيجة انفجار قويّ ، ليسقط على الأرض من جديد .. وينظر حوله ، فإذا برشاشه قد ابتعد عنه قليلا .. وينظر أمامه فيرى الرفيق الأوّل قد ولّى هارباً ، وتمرّ بذاكرته مرور البرق حادثة حصلت معه منــذ فترة .. حين سمع صوتاً يرتعش في معركة خاضها مع رفاقه ضدّ العدوّ : (أخي أنا في حماك) ، وأجاب : (دون توانٍ ،

أنا عندك) . ووضع قذيفة (آر-بي-جي) على مدفع معطوب بطلقة أصابته من قبل ، واستدار إلى الخلــف وجلــس جلسة الاستعداد .. وكان يفعل ذلك ليرفع معنويات أخيه فحسب ، وفجأة وجد جنود العدوّ قد ضربوا أمامه قوساً ، ويحمل كلّ منهم رشاشاً ويمسك بيده كلباً (بوليسياً) .. وأيقن آنذاك أنّ مصيره قد تقرّر ، ولم يكــن معــه مــن السلاح الفعّال سوى قنبلة يدوية وحيدة ، فأخرجها وهيّأها للإلقاء في اللحظة المناسبة ضاغطاً علــى زرّ الأمــان .. وينظر كلّ فريق إلى خصمه دون حراك ، ومرّ جدّ قصير من الوقت ولكأنّه الدهر ، ويرد على باله أن يعرف عــدد قاتليه ، ويبدأ بالعدّ إلى ينتهي لرقم عشرة .. ولم يحصل جديد يغيّر الموقف ، فحاول تهدئة أعصابه التي بدأت تتــوتّر شيئاً فشيئاً بأن يعدّهم مرة ثانية .. وما إن وصل إلى رقم ثمانية حتى سمع صفير قنبلة تنفجر مدوية في صف عــدوّه ، واستغلّ الموقف بأن حمل أمتعته وولّى هارباً وقد لمح اثنين من أعدائه يطلقون الرصاص فيصيب موقع قدميه ، وهــو مستمرّ في جري لم يكن له به عهد من قبل ، إلى أن سقط في حفرة .. فاستعدّ لإلقاء القنبلة اليدوية إذا احتاج الأمر ، لكنّه سمع صوت خصميه يتشاوران ثمّ يعودان بخيبتهما ، فينتظر فترة ثمّ ينسحب ..

وما إن أفاق من ذكرى تلك الحادثة حتى وجد نفسه أمام حقل الألغام يخاطب نفسه فيقول : (لقد كان الأجدر بهذا الرفيق أن يودّعنا الوداع الأخير قبل أن يفرّ)

ويزحف خارجاً من الحقل متوجهّاً إلى أخيه المصاب ويتفقدّان إصابتيهما ، فإذا بهما متشابهتان : أحــدهما فقــد رجله اليمنى والآخر اليسرى .. وبحثا عن مكان أمين فبقيا هناك مدّة يظنّان أنّ نهايتهما قد اقتربت ، ويسمع الصديق من صاحبنا كلماته تخاطب فلسطين : ألا تذكري حبيبتي قولي لك إلى اللقاء ؟ .. لقد عدت إليك لا لأفارقك ثانيــة بل ليضمّني صدرك الحنون ، إلى الأبد .. هذا ما أردت أن أنال

وما كاد ينتهي من كلماته حتى سمعا صوتاً يقترب منهما فأخذا حذرهما ، وتبيّنا الصوت جيّدا .. إنّها مجموعــة الإنقاذ جاءت بعد أن علمت من الرفيق الثالث بالخبر .. وحملا إلى القاعدة ، وهدّهما تعب الإصابة والنقل فغطّــا في سبات عميق ..

واستيقظ فوجد نفسه على فراش ، ورأى ما تبقى من ساقه ملفوفاً بلفافة بيضاء ، محاطاً بقفص حديدي ، وقــد وصل أنبوب مطاطي زريده بزجاجة تزوّده بالسوائل الطبّية الضرورية

نظر يمنة ويسرة ، ثم ضغط على الجرس ، وتأتي ممرّضة فيبادرها بالسؤال :

- أين أنا ؟
- في مستشفى القدس ببيروت

قال كالمخاطب نفسه مشيحاً بوجهه :

– لقد ظننت لقائي بحبيبتي سيدوم إلى الأبد ، فإذا به لقاء عابر .. ولكنّه جميل ، لقد قدّمت فيه أجمل هدية

وتابع ملتفتاً إلى الممرضة :

– وأنت .. لا أريد سوى أن أشكرك على إجابتك! .

لم تستطع الممرّضة فهم ما قال ، فنظرت حائرة ، ثمّ انصرفت